الذكرى العاشرة للرافعي *

للأستاذ محمود أبو ريه

مما يجب علينا لعظمائنا وعلمائنا الذين ينتزعهم الموت من بيننا، أن نتهز كل مناسبة تمر بنا لنستعلن بفضلهم، ونبعث التحية الطيبة إلى أرواحهم، وفي ذلك وفاء لهم وإحياء لذكرهم حتى لا نرمى بعدم الوفاء، ولا نزن بنكران الجميل

ولمناسبة انقضاء عشرة أعوام على وفاة أديب العربية وكاتبها السيد مصطفى صادق الرافعي رحمه الله نرى من الحق علينا أن نبعث إلى روحه الطاهرة بتحية مباركة طيبة ونرجو أن تفي هذه التحية ببعض ما له من فضل وما يستحق من تقدير

نبت الرافعي في أكرم منبت وأزكى مغرس؛ فبيت (الرافعي) مشهور في الأقطار الإسلامية بأنه بيت علم وأدب وتقوى، ولئن كان رحمه الله قد ورث عن آبائه الدين والتقوى، فانه قد نشأ على حب الأدب العربي، فأقبل على دراسته دراسة استيعاب واستقصاء وتحقيق، حتى تضلع من فنونه، وتملأ من أصوله، ووقف على أساليب بلغاء العربية وأحاط بطرائقهم ومناحيهم حتى أصبح صدره خزانة أدب. وقد آتاه الله ملكة قوية في البلاغة، وحاسة دقيقة في البيان، وبهذه الدراسة المحيطة للأدب العربي، والملكة القوية في البلاغة، والذوق الدقيق في البيان، استطاع أن يبتدع لنفسه أسلوباً خاصاً في الكتابة العربية يباين أساليب الكتاب جميعاً إذ يجمع هذا الأسلوب بين البلاغة والحكمة والخيال، هذا مع النكتة اللاذعة والكناية المستملحة. حتى لو أنك نصبت جملة من إنشائه بجانب جمل كثيرة من إنشاء غيره من كتاب العربية لبانت جملته منها جميعاً، ولنادت على نفسها بأنها للرافعي ومن أسلوبه رحمه الله

لقد شبهوه بالجاحظ، وكأنهم لما رأوا أسلوبه محكم النسج متخير اللفظ مصقول العبارة أنيق الديباجة، قد خلعت عليه البلاغة زخرفها، وكسته الفصاحة بجميل وشيها؛ قالوا إنه جاحظ هذا العصر. ولكن الجاحظ على إمامته في البلاغة وبراعته في

(*) توفي رحمه الله في صباح يوم الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧.

أعرف نادلا كان في (قهوة فاروق) في الشام اسمه (حلمي) يدور على رواد القهوة وهم مئات يسألهم ماذا يطلبون: قهوة أو شاياً أو كازوزة أو ليموناً، والقهوة حلوة ومرة، والشاي أحمر وأخضر والكازوزة أنواع، ثم يقوم وسط القهوة ويرد هذه الطلبات جهراً في نفس واحد، ثم يجيء بها فما يخرم مما طلب أحد حرفاً!

فيا سادة، إن الصحة والوقت والعقل، كل ذلك مال، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد.

* * *

وملاك الأمر كله ورأسه الإيمان، الإيمان يشبع الجائع، ويدفىء المقرور، ويغني الفقير، ويسلي المحزون، ويقوي الضعيف، ويسخي الشحيح، ويجعل للانسان من وحشته أنساً، ومن خيبته نجحاً.

وأن تنظر إلى من هو دونك، فإنك مهما قل مرتبك، وساءت حالك، أحسن من آلاف البشر ممن لا يقل عنك فهماً وعلماً، وحسباً ونسباً، وأنت أحسن عيشة من عبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد، وقد كانا ملكي الأرض. فقد كانت لعبد الملك ضرس منخورة تؤلمه حتى ما ينام منها الليل، فلم يكن يجد طبيباً يحشوها ويلبسها الذهب، وأنت لا تؤلمك ضرسك حتى يقوم في خدمتك الطبيب. وكان الرشيد يسهر على الشموع، ويركب الدواب والحوامل وأنت تسهر على الكهرباء، وتركب السيارة. وكانا يرحلان من دمشق إلى مكة في شهر وأنت ترحل في أيام أو ساعات.

فيا أيها السادة والسيدات.

إنكم سعداء ولكنكم لا تدرون. سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتقمتم بالمحزون من قواها، سعداء إن سددتم آذانكم عن صوت الديك ولم تطلبوا المستحيل فتحاولوا سد فمه عنكم، سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم.

أكمل الله عليكم سعادتكم، وأسعد الله مساءكم، والسلام عليكم.

(القاهرة) علي الطنطاوي

الترسل ، وطول نفسه فى العبارة ، وافتنانه فى تلوينها وابداع تصويرها ، كان عندما يستطرد إلى غير الغرض الذى ساق كلامه إليه ، ويذهب فى شعاب القول هنا وهنا يؤدى به هذا الاستطراد إلى الخروج عن بلاغته العالية .

ومع أن الجاحظ حجة من حجج العربية وامام كتابها على مد العصور فانك لا تجد فى مطاوى كلامه قبساً من الحكمة . والحكمة من أقوى اداة الكاتب والشاعر

ولقد كان للرافعى خيال بعيد ينفذ به إلى أقطار المبانى الدقيقة فيستوحى منها الدرر ، ويحلق فى جواء التصورات البعيدة فيستنزل منها الغرر

ولا نقول هذا مجاملة له رحمه الله ، ولا يدفعنا إليه تشيع لما كان بيني وبينه من أواصر الصداقة والمودة ، وإنما هو الحق والانصاف .

وقد كان الرافعى أستاذ مدرسة خاصة فى الأدب والكتابة ، وكان فى الأخلاق الكريمة والتمسك بآداب الإسلام ومجد العرب أمة وحده ، لا يعنيه شىء فى الحياة إلا أن يحرس لغة القرآن ويحافظ على أساليبها ، ويبعث من تراثها ، ثم كان لا يفتأ يعمل على إحياء الآداب الإسلامية والأخلاق الدينية ، حتى ينشأ هذا الجيل على محبة لغته ودرس فنونها والتمرس بآدابها ثم يأخذ بأخلاق دينه وصالح عاداته . إذ كان يستيقن رحمه الله — وهو على حق — ان الأمة لا تنهض إلا باستمساكها بأصول لغتها وكريم أخلاقها ، ثم لها بعد ذلك أن تأخذ من العلوم والفنون النافعة فى الحياة ما شاءت وشاء لها نظام العمران

ولما انبعثت فتنة (التجديد والمجددين) منذ أكثر من ثلث قرن وكان أهلها يحاولون أن تكون الكتابة (باللغة العامية) وأن نهجر أدبنا القديم وتراثنا التليد كان هو أول من نازل دعاتها وظل وحده يناضل ويصاول حتى كتب له النصر وخرجت الأساليب العربية الصحيحة ظافرة تشرق على أسلات الأقلام

وما كانت هذه الفتنة لإصلاح يراد ولا كانت لتطور معتدل وإنما كانت ترمى إلى غرض بعيد ؛ ذلك أن القضاء على البلاغة العربية يؤدى لا جرم إلى هجر القرآن وعدم فهمه وبذلك يصبح هذا الكتاب المقدس للغة العربية كاللاتينية للغات الأوروبية ؛ ومتى صار القرآن كذلك فقل على الإسلام العفاء .

وظل رحمه الله رابضاً متحفزاً يحمى ذمار العربية ويذود عن حوضها إلى أن انقلب إلى ربه

وانى لأشهد أنه كان يتحرق على ماوصلنا إليه من ضعف فى الأدب ، وانحلال فى الخلق ، ويود لو تتاح له الفرصة ليطلع على الناس فى كل أسبوع بمقال فى إحدى الصحف يؤدى فيه شيئاً من رسالته حتى سنحت له فرصة الكتابة بمجلة الرسالة الغراء وارتقى منبرها فامتلأ قلبه فرحاً وقد بدا سروره فى خطاب أرسله إلى فقال[1]

« أما الرسالة فهم كتبوا إلى بعد أن تركت طه حسين ... وقد رأيت انى مخطىء فى الاقتصار على وضع الكتب ، وكان فى نيتى من زمن الكتابة أسبوعياً فى مجلة كبيرة كما أخبرتك فلما عرضت هذه الفرصة انتهزتها لأجرب هذه الطريقة ... ولعلى أوفق إن شاء الله بعونه تعالى فى المضى فى الكتابة والقوة بالله ، وسأنوع المواضيع كما رأيت ويدخل فيها فصول الكتاب النبوى بين الوقت والوقت إلى أن يتم وأنا أقاسى فى كتابته الآن عسراً شديداً من الحر والتعب وحالة المعيشة الحكومية لعنة الله عليها

« وهذا الموضوع صعب جداً يا أبارية ليس فى العربية مقال واحد منه . ومن يومين أطلعنى المريان على الجزء الأول للنظرات [2] فإذا فيه مقال عن الهجرة لا يساوى نصف مليم ! فادع الله لنا بالعون فى اقتحام هذه العقبة ... »

والكتاب النبوى الذى يشير إليه الرافعى فى هذا الخطاب هو كتاب كان يريد أن يضعه فى رسالة الرسول صلوات الله عليه ويجعل عنوانه (محمد)

ولقد كان له غير ذلك آمال يريد تحقيقها وأعمال يود استكمالها ، ومن هذه الأعمال كتاب (تاريخ آداب العرب) الذى كان يقول عنه انه دين فى عنقه حتى يتمه. وقد انعقد الاجماع عندما ظهر الجزء الأول منه انه لم يؤلف فى موضوعه مثله

وممن أشادوا به الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا فقد

---

(١) فى خطاب أرسله الى مؤرخ ١٩٣٤/٧/٤ .

(٢) كتاب النظرات للمنفلوطى رحمه الله .

عقد له صفحات كثيرة فى الجريدة ولولا اننا نؤثر الإيجاز لأتينا على ما كتبه هنا[١]

وعقد له الأمير شكيب أرسلان رحمه الله صفحة طويلة فى صدر جريدة المؤيد[٢] جاءت فيها هذه العبارة « لو كان هذا الكتاب خطا محجوباً فى بيت حرام اخراجه منه لاستحق أن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشىء الاسحار لكان جديراً أن يعكف عليه »

ومن الكتب التى أتمها كتاب (أسرار الإعجاز) وكان رحمه الله يفاخر به وقد وضع أكثره . وكان يريد أن يضع « رسالة فى معارضة الدرة اليتيمة لابن المقفع بنفس الأسلوب وعلى الطريقة الأولى فى الكتابة العربية طريقة المتقدمين »[٣]

وكتب إلى فى خطاب[٤]

« وأنت قرأت الآم فرتر وهذا الكتاب مشهور فى لغات أوروبا وآدابها فأنا أريد معارضته وقد قام بذهنى انه لا راحة لى إلا إذا أخرجت مثله »

وقال فى خطاب آخر :

« ولا يزال فى فكرى أن أضع كتاباً صغيراً يكون أشبه بقصيدة واحدة فى معارضة سفر من أسفار التوراة كأناشيد سليمان مثلا »[٥]

وقال فى خطاب[٦]

« وأنا بحسرة من كليلة ودمنه[٧] فلو وفقنى الله إلى اتمامه كتاباً برأسه لكان حادثاً فى تاريخ العربية كلها »

ولا استوفى هنا كل ما كان يريد عمله

ولقد كان له فى البحث والاستقصاء شأن عجيب فيوم أن غمره الجمال وأخذ يؤلف كتاب أوراق الورد بعد رسائل الأحزان أراد أن يعرف هل كتب (اخوان الصفا) فى الجمال فكتب لى فى خطاب مؤرخ ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠

« ... أبحث فى إخوان الصفا هل كتبوا عن الجمال فإنى لم أقرأ فى هذا الكتاب إلا قليلا ولا وقت عندى لتصفحه ... »

كتب إلى فى خطاب آخر مؤرخ ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣١ يقول

« أحب أن تراجع قسم المنطق من رسائل إخوان الصفا لمعرفة هل استعمل واضعو هذه الرسائل كلمة (استنتاج) أم لا فإن من مقالات المجموعة[١] مقالة عن هذه الكلمة وحل استعمالها . أما الكلمة نفسها فعثرت عليها فى كتابة ابن سينا وهذا يدل على أنه أخذها عمن قبله ، فلا بد أن تكون قد وردت فى رسائل إخوان الصفا » . وإن القول فى الرافعى وأدبه لطويل ؛ وإنما هى سطور كتبناها لمناسبة انقضاء عشرة أعوام على وفاته رحمه الله

وإذا كان أقصى مايقال فى العظماء بعد وفاتهم أن يتحدث عن صفاتهم وأعمالهم ، وعما أصاب الناس بفقدهم ، وهل لهم خلف يعزى عنهم أو أنهم قد خلا مكانهم فإنى أقولها كلمة ولا أخشى فيها أحدا .

ذلك إن مكان الرافعى قد خلا وانه لم يخلفه فى إداء رسالته أحد . رحمه الله رحمة واسعة .

المنصورة محمود أبو ريه

(١) أى مجموع مقالاته وكان يسمى هذه المجموعة (الورقات) .

(١) يراجع بعض ما كتبه فى عدد الجريدة الصادرة فى ٤ مارس سنة ١٩١٢ .
(٢) جريدة المؤيد الصادرة فى ١٩ فبراير سنة ١٩١٢ .
(٣) من خطاب خاص مؤرخ ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .
(٤) من خطاب خاص مؤرخ ١٩٢١/١/٢٥ .
(٥) من خطاب مؤرخ ٥ يونيه سنة ١٩٣٦ .
(٦) من خطاب مؤرخ ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ .
(٧) نشر بعض فصول من هذا الكتاب فى كتابه (تحت راية القرآن)

إعلان مناقصـــــة

تقبل العطاءات بمكتب حضرة مدير إدارة الميزانية واللوازم بوزارة الداخلية لغاية ظهر يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٤٧ عن مناقصة التوريدات العمومية المستديمة لسنة ٤٧ / ١٩٤٨ ويمكن الحصول على الاستعلامات اللازمة من إدارة أسلحة ومهمات البوليس ببولاق وثمن النسخة من الشروط ٢٠٠ مليم ٧١٦٦